(احمد) شيخ بارزان الخامس

(١٨٩٦ـ ١٩٦٩)

پێ ره ش

من الصعب التحقق من تأريخ ولادته وذلك في غياب الوثائق المكتوبة كما لم تكن عادة تسجيل تواريخ الولادات معروفة في ذلك الزمان في مناطق بارزان . لكن على الارجح انه ولد عام١٨٩٦ في قرية بارزان وتوفي عام ١٩٦٩ .

هو الابن الثاني لشيخ بارزان الثالث (محمد) اذ كان له خمس اولاد : عبدالسلام (اعدمه الاتراك عام ١٩١٤) احمد ، محمد صديق ، بابو (محمد) و ملا مصطفى .

لم ينعم (احمد) بطفولة هادئة اذ كان أغوات الزيبار ممتعضين من تنامي نفوذ والده شيخ بارزان الثالث (محمد) في اوساط القبائل وانه يشكل عائقاً امام استغلالهم الاقتصادي للقرويين ويهدد نفوذهم ..

لذا حاولوا الايقاع به لدى السلطات العثمانية بتقديم شكاوى الى الوالي العثماني في الموصل او باستعداء رؤساء القبائل المجاورة او من خلال تحالف الاثنين معاً .

في مواجهة ظروف صعبة وضغوط والي الموصل وتهديدات الاغوات وزحف القوات من كل صوب على مناطق بارزان اضطر والده على ترك قريته اربع مرات بين اعوام (١٨٨٥ ـ ١٨٩٧) .

نشأ (احمد) في بيئة صوفية سليمه وملتصقاً بالطبيعة الخلابة في كردستان. ونمى لديه شعور بالتسامح الديني ، اذ كانت قريته موطناً لليهود والمسيحيين يعيشون في انسجام كل يمارس طقوسه الدينية ، وعلى علاقات اجتماعية حسنة وكان لقرويي بارزان مصالح متبادلة في حقل التجارة والزراعة والصناعات الخفيفة التي تتعلق بأدوات الحراثة والحصاد و حياكة الملابس.

تقع قرية بارزان على قدمات جبل شيرين على السفح المواجه للشمس . وكانت قرية متعددة الثقافات واللغات ، ولاتبتعد الكنيسة المسيحية والمعبد اليهودي ومسجد المسلمين غير عشرات الامتار عن بعضها البعض . وكل ساكني القرية من الاديان الثلاث يعرف بعضهم البعض. وقد راع الجميع قوانين الارواء التي تنظم اوقات ارواء البساتين اسفل المنازل . ولكل طائفة مقبرتها الخاصة يدفنون فيها موتاهم ، وجميع الطوائف كانت تشترك في التعازي والافراح التي تشهدها القرية

كما نشأ (احمد) على حبّ الطبيعة والرفق بالحيوان . وكان يقضي أوقات طويلة خارج القرية مكتشفاً تضاريس جبل شيرين الوعر ذي الاخاديد والكهوف والوديان والمتاهات والشعاب والغابات الكثيفة وكانت تقطنه حيوانات مفترسة مثل النمور والدببة والذئاب والافاعي السامة. وعن تضاريس هذه البقاع يصفها الكاهن الانكليكاني W.A. WI GRAM وقد مرّ مسافراً خلالها : " تحتنا يمتد وادي الزاب وهو مجموعة شعثاء متداخلة من الهضاب والوهاد تجمعت بشكل معقد متشابك مثل تلاطم امواج البحر . وشريط النهر الواسع البراق الذي يكاد هنا يوازي دجلة في حجمه ، يسلك سبيلاً ملتويا زائغا خلال منعرجات كثيرة التعقيد لا اول لها ولا آخر والجانب المقابل من الهوة العميقة يحده نجد اجرد حفرت فيه امطار الشتاء ندوبا غائرة ، واستند الى آكام محزوزة من الصخور الجيرية وفوقه هنا بامتداد الافق تشمخ الذرى الثلجية العظمى لجبال

حكارى برؤوسها مثل (النيفاتيس) للشاعر هوراس {حيث زرع ابليس قدميه لاول مرة عندما نزل الى العالم المخلوق حديثا}على مايقوله (ملتون) -MIL TON .

صقع من الارض غير مروض ، حلقة حديد محكمة ، جنة مثالية غالية للعصابات والشقاة . تلكم هي الارض المعروفة ببلاد العشائر، وسكانها اذا انصفناهم- على استعداد تام لاستغلال ميزاتها وهم شبه مستقلين وان كانوا يخضعون بالاسم الى الترك . اشباه بدو على طراز (جونى آرمسترونگ Johnny Armstrong (اشباه جبليين على طراز روب روي) هنا فرمانات السلطان واوامره لاتساوي شروى نقير دون مساهمة واضحة من الحراب ....."

ويقول الكاهن معلقا على نفوذ شيخ بارزان "....لان شيخ بارزان فضلا عن كونه واحدا من اعظم زعماء الجبال نفوذا فهو اكثرهم مهابة ومدعاة للاحترام ....."ص ١٢٨ . مهد البشرية .ترجمة جرجيس فتح الله .

كانت طاعة شيخ بارزان والتمسك بتعاليمه امرا في غاية الاهمية لدى اتباعه من المريدين . وهذه الطاعة تشمل اخوة شيخ بارزان مثلما تشمل المريدين . وقد روى المار شمعون للقس الانكليكاني القصة التالية عن مدى تعلق البارزانيين بشيخهم : " كان احد الارتال العسكرية يعقب الشيخ وفي اثناء ذلك قبض على صبي تأخر من الجماعة الفارين . فطلبوا منه مهددين ان يدلهم على الجهة التي سلكها شيخه الا ان الصبي كان اصلب من الحديد واجابهم . {أقسم باسم الشيخ المبارك أني لن اخبركم ! } وكان هذا كل ماستطاعوا انتزاعه منه بعد صنوف الترغيب والتهديد . وتشاء الصدف ان يكون قائد الرتل التركي طيب القلب فلم يسيء معاملة الاسير الصغير . لكنه لم يتردد في استخلاص حكمة من سلوكه بعد ان اخلى سبيله فقد قال لضباطه وهو يبتسم- لن نربح من هذه الحرب شيئاً . وبامكانكم ان تحكموا من هذه الواقعة على طبيعة الرجال الذين نقاتلهم . فهذا الطفل كان تحت رحمتي تماما ولن يحاسبني احد عن قتله لو شئت ذلك ، ومع معرفته هذه الحقيقة فقد تحداني وحلف باسم شيخه كأنه يحلف باسم الله ، }..

كان والده قد تجاوز الخامسة والستين عاماً عندما واتت المنية و كان هو ابن ستة اعوام .ووقع واجب رعاية العائلة على عاتق الابن الاكبر (عبدالسلام) شيخ بارزان الرابع .

كان (احمد) يكن لشيخ بارزان احتراما فائقا وسعى الى الاهتداء بتعاليمه منذ نعومة اظفاره . بعد وفاة والده (شيخ محمد)احاطه بالرعاية أخوه (عبدالسلام) ولم يمضي سوى خمس سنوات حتى ماتت امه ، فازداد تعلقه بأخيه (شيخ بارزان الرابع) وفي سنّ الثالثة عشر وعندما كانت حلقة الحصار العسكري التركي والمرتزقة من الاغوات تطوق بارزان اثر انتفاضتها عام ١٩٠٨ ، واصبح الجيش التركي على بعد خمس كيلومترات من بارزان من جهة الجنوب ، كان البارزانيون مجتمعين بشيخهم ، معظم قادته كانوا يحبذون الاستمرار على المقاومة حتى النفس الاخير ، لكن شيخ بارزان في اللحظات الاخيرة واجه قادته والجمع المحتشد بقراره : " لااريد تعريض كل القرى الى الدمار وقتل الابرياء ، هؤلاء يريدون رأسي ، فان اختفيت انا قد يتركون الناس يعيشون في ديارهم دون دمارشامل او قتل ، ساترك بارزان ، ومن يخاف على نفسه ان يلتجأ الى الجبال عسى الله ان يفتح لنا باب الفرج قريبا ." عندما علم (احمد) بقرار اخيه الشيخ واجهه وهو ابن اثني عشر عاما : " ، ارجو قبول التماسي هذا اريد مرافقتكم ." قال ذلك

بحزن واسى والترجى واضح من ملامحه ، نظر اليه (شيخ بارزان) متاملا وقال : " لاتزال صبيا ، لن تستطيع تحمل المصاعب التي ساتحملها ، الذي يرافقنا حتى النهاية يجب ان يكون بصلابة الحديد . يعز علي ان تشاطرني مثل هذه المشقات ولا يطاوعني قلبي ان اخذك معي." .

قبل اختفاء شيخ بارزان عن الانظار رتب امور اختفاء اخوته واخواته مع امهاتهم في اوساط المزورين . ثم اختفى متلبسا بزي الدراويش وطلاب العلم . وكان الاتراك قد وضعوا جائزة لمن يأتي برأس شيخ بارزان حياً او ميتاً.

ومن خلال البحث الدؤوب عن افراد عائلة (شيخ بارزان) ان عثر بعض الجواسيس على احدى امهات الشيخ (خاتون) وسيقت هي وبناتها وولدها (ملا مصطفى) الى سجن الموصل ، بينما بقي افراد العائلة المختفون مجهولي المكان . وشيخ بارزان نفسه ضاعت جميع آثاره وكأن الارض ابتلعته .

ورزحت مناطق بارزان تحت الاحتلال التركي المباشر.

نشأ في (الذاكرة الجماعية) لدى اتباع وانصار بارزان ايمان مفاده ان لابد من تحمل المصائب والاقدار التي هي نتيجة لمقاومة الطغيان . وهذه مهمة مقدسة ومباركة يجب القيام بها على احسن وجه ، واصبح من صميم تقاليد بارزان مقاومة الطغاة سواء حكومات او الاغوات المرتزقة الذين كانوا يعاملون القرويين معاملة العبيد . مقاومة الظلم اصبح جزءً من التعبد ووضعها البارزانيون موضعا رفيعا في مجرى حياتهم .

وبالنسبة لـ (احمد) فقد بدأ منذ سن مبكرة يعي مايجري حوله وتبلورت افكاره الدينية بفضل اخيه الاكبر و الرجال المحيطين به والمعروفين بالتزامهم الروحي بمبادىء الطريقة النقشية . فضلا عن تردده على مسجد بارزان حيث حلقات الذكر والمحاضرات والاشعاع الروحي . كان بديهيا بالنسبة له ، انه لايمكن ان يتعايش العدل والظلم ، لابد من المواجهة ومايجري على الساحة من معارك ، هو انعكاس لحرب بين جبهتين ، جبهة الخير وجبهة الشرّ.

دام حكم شيخ بارزان الرابع من ١٩٠٢ الى ١٩١٤ . وبرغم حكمه القصير الا ان بارزان برزت كقوة لها شأنها في مقارعة الظلم المحلي والحكومي معاً .

كان (احمد) طويل القامة قوى البنية هادئ الطبع ، وسيماً ، لايخشى المصاعب والملّمات عميق الايمان بالله وبمشيئته . ونو صبر وجلد عظيمين . سبر اغوار الطريقة النقشبندية وطبقها حرفياً في حياته المحفوفة بالمعارك وبالمخاطر وفي زنزانات الاعدام وحياة السجون الطويلة وفي المنفى .

يمكن تقسيم حياته وفق المراحل التالية :

١ ـ طفولته حتى اعدام شقيقه عام ١٩١٤ .

٢ ـ اعوام التشرد وتقلص نفوذ بارزان حتى عام ١٩١٩ .

٣ ـ النهضة الروحية حتى عام ١٩٢٧ .

٤ ـ توقف النشاط الروحي وبداية مقاومة احتلال القوات البريطانية العربية لمناطق بارزان والالتجاء الى تركيا عام ١٩٣٣ .

٥ ـ سنوات المنفى في الحلة والناصرية والسليمانية حتى عام ١٩٤٤ .

٦ ـ انتفاضة بارزان عام ١٩٤٥ والنزوح الى كردستان ـ ايران ـ حتى عام ١٩٤٧ .

٧ ـ العودة الى العراق والحكم عليه بالموت ثم بالسجن المؤبد ونشاطه الروحي داخل السجن الى ثورة تموز عام ١٩٥٨ .

٨ ـ سنوات الثورة الى عام ١٩٦٧ .

٩ ـ النهضة الروحية ومحاربة الفساد ٢٧ ـ ٣

- ١٩٦٧ والى بداية عام ١٩٦٨ . وحتى وفاته في ١١ - ١ - ١٩٦٩ .

كان شيخ بارزان الخامس محط نقمة السلطات التركية والبريطانية والعراقية .كان كثير التعاطف مع ثورات الكرد في كردستان الشمال، وآوى اعدادا هامة من الفارين في مناطق بارزان من ضمنهم كور حسين پاشا . وفي ١٨ / ٩ / ١٩٣٠ ، ذكر القائم بالاعمال التركي في بغداد لنوري السعيد : " ان العمليات العسكرية الحالية التي يقوم بها الجيش التركي في مناطق آرارات قد تكللت بالنجاح ، وان الجيش يتجه للقيام بعمليات اخرى في مناطق غربي بحيرة وان . ومن المؤمل ان تنتهي جميع هذه العمليات في وقت قصير . ثم اشار القائم بالاعمال التركي الى التطمينات التي سمعتها في انقره ، واعني ان الجيش التركي سيكون مهيأً للتحشد على خطوط الحدود التركية العراقية ، وذلك في حالة قيام العراق بشن حملات تأديبية ضد شيخ بارزان ." وكان عصمت اينونو قد شكى لنوري سعيد عندما التقى به في انقره ، من ان شيخ بارزان يؤيد عصيان ارارات . - انظر الى ارشيف : (E 4976 / 1932 / 93 مؤرخة في ٤ / ٩ / ١٩٣٠ .

وفي ارشيفات الحكومة البريطانية وثائق كثيرة حوله . وللمزيد من التفاصيل راجع كتاب - العراق دولة بالعنف - پ‌ئ‌ره ش . - ١٩٨٦ .

كان ساخطا من سمايل آغا (سمكوشكاك) ورفض مجيئه الى بارزان كما رفض الالتقاء به بسبب عملية الاغتيال التي قدم عليها سمكو ضد (المار شمعون) ولم يكن امام (سمكو) لى قبول الامر الواقع

كان متواضعا في تعامله مع الناس وكثير الاحترام لمن حوله ، وكان صريحا في تعامله مع الاعداء والاصدقاء وبنفس الروحية تعامل مع الغني والفقير ومع القوى والضعيف. وكان الفرق عظيما بينه وبين اخيه المرحوم ملا مصطفى في اسلوب التعامل مع السياسيين ، فهو لم يعظم انسانا لانه في حاجة اليه . ولم يكتب رسائل تمجيد وتعظيم لضابط بريطاني وكان يعتبر رجال الحكومات منافقين وكذابين . كما وقف ضد جمع الثروة ، ومن هنا تعلق البارزانيين به تعلقا شديدا وفريداً .

عندما كان في زنزانة الاعدام في البصرة ، تقدم منه ولده السجين طالبا منه كتابة رسالة استرحام للملك والحكومة العراقية ، عسى ان يخفف عنه حكم الاعدام . امتعض كثيرا من هذا الاقتراح وقال: " لايستجدى غير الله . افعلوا ذلك لانفسكم ، لكن ليس لي" . بقي في غرفة الاعدام لمدة ثلاث سنوات ثم تسع سنوات اخرى في السجن، طيلة تلك الفترة لم يستجدي لاالملك ولاوزير من وزراء الحكومة الملكية . وخرج من السجن بعد انهيار النظام الملكي في ١٤ تموز عام ١٩٥٨ .

واثناء عمليات قصف الـ RAF البريطانية والحملات المشتركة البريطانية والعربية لاحتلال مناطق بارزان عام ١٩٣٢ ، ووقوع اثنين من طياري السلاح الجوي الملكي في ايدي قوات بارزان قال (احمد) للكابتن V. Holt. الذي جاء ليقنعه بالاستسلام والقاء السلاح : " افضل الاستسلام لاعدائي المعلنين ، الترك ، من ان استسلم لعبيد الانكليز او لكم انتم العملاء المنافقون ." انظر كتاب : British Betrayal of the Assyrians . ص: ٤٢ .يوسف ملك .

وضع (احمد) قوانين واضحة تخص المحافظة على البيئة وهي قوانين ملزمة للجميع :

١ - منع قطع اشجار الثمار منعا باتاً. وايضاً منع قطع الاشجار الباسقة الواقعة على حافات الممرات والتي يرتاح في ظلالها المسافر .

٢ - منع هدم خلايا النحل لاستخراج عسلها،

يجب اخراج العسل بشكل لايؤذي النحل ولايمنعها من العودة الى خليتها.

٣ ـ منع قتل الافعى السوداء غير المسمومة .

٤ ـ منع القاء المتفجرات في الانهر لصيد الاسماك . لان ذلك يقتل آلافا من الاسماك الصغيرة .

٥ ـ منع الصيد عند موسم التناسل للطيور وللحيوانات.

٦ ـ منع قتل الحيوانات والطيور اثناء شربها الماء عند الينابيع .

جائت هذه القوانين في وقت كثرت فيه الاسلحة النارية بفعل الثورة الكردية وكان المسلحون يطلقون النار على الحجلى والحيوانات حتى من قبيل التسلية . كانت الحيوانات البرية تواجه خطر الانقراض بسبب كثرة السلاح وغياب الشعور بالمسؤلية تجاه الحيوان والبيئة بشكل عام..

سألني مرة مستغرباً الصحفي الفرنسي (كريس كوتچيرا) لماذا لم يكتب تأريخ (شيخ بارزان . احمد) . هذا ضروري جدا فهناك كثير من الارشيفات حول مقاومته العنيدة للاحتلال البريطاني العربي . الواقع انه لم يكتب عنه الاّ القليل . مثلاً : كيفية تنظيم حياة اتباع الطريقة النقشبندية ، التربية الروحية والادارة والعلاقات الاجتماعية ، مساعدة الارامل والايتام في مجتمع القرية، تنظيم العمل الزراعي في القرى . وفلسفة شيخ بارزان في الحياة...الخ . لقد كان (مربيا روحيا) قبل اي شيىء آخر.. الجدير بالذكر ان القرى التي كانت تأتمر بأوامره المباشرة كانت اكثرها اتحاداً ومساواةً وعدلاً وارفع خلقا . ولم يكن فيها غبن ، تماما بعكس القرى التي نظمتها السلطة الدنيوية ، اذ كانت تعاني من الفساد والاجحاف وانعدام المساواة .

كان شيخ بارزان مؤمنا بالحوار وبمنطق العقل ويكره استخدام القوة الاّ اذا لم يعد من خيار . ويجب التنويه هنا الا ان اولئك البارزانيون الذين كانوا يعملون مع المرحوم ملا مصطفى سواء في صفوف الثورة او الهجرة الى الاتحاد السوفيتي كان هؤلاء البارزانيون يتعاونون معه من منطلق ـ وهذا ماكان يردده لهم ملا مصطفى نفسه ـ ان كل مايعمله انما بأمر من شيخ بارزان . اي ان كل مايفعلونه هو تطبيق لارادة شيخ بارزان . وقد اعطى (ملا مصطفى) نفس الانطباع للسلطات البريطانية بان كل مايقوم به هو بصلاحية من شيخ بارزان . انظر ارشيف رقم : FO 624 71 مؤرخة في ٢٢ . ٤ . ١٩٤٥ .

كان شيخ بارزان عماد وحدة البارزانيين وهناك اجماع في الآراء لو كان حيا لما قبل قرار انهاء الثورة الكردية والاستسلام اثر اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ . وكان ممكنا ان يأخذ التأريخ الكردي مجرى آخرغير الهزيمة والاذلال.

اننا نعتقد انه من غير الممكن فهم دور بارزان في التأريخ الكردي دون فهم مواقف شيخ بارزان الخامس و التي لم تتناولها اجهزة الاعلام الى القليل.

عارض الاسلوب الوراثي في تولى الشؤون الروحية في بارزان ، فمن يتولى هذه المهمة يجب ان تتوفر فيه المزايا والقابليات وان لايحيد عن الطريق الصحيح ..... .هاجم الفساد الذي كان يستشرى تدريجيا في جسد الثورة الكردية وانتقد قلة اهتمامها بالطبقات المسحوقة والتي تتحمل عبأ الثورة وكان متخوفا من ان تصبح القضية الكردية وسيلة للمتاجرة . وبالنسبة له (البارزاني) هو الشخص الذي تتوفر فيه المزايا التي تنص عليها الطريقة ويرعى تقاليد تأريخ ، بارزان انها (فكر وعمل ومحاربة الظلم) ، وليس ابدا كل من يحمل اليشماخ الاحمر او ان يكون ابن العائلة البارزانية او يعيش .في مناطق بارزان .... بعد وفاته مباشرة تمزقت العائلة البارزانية وكثرت الدسائس والمؤامرات والتنافس والحسد وانفجر الصراع الداخلي على السلطة والامتيازات .....